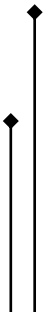

لكل قصة اسمها ..

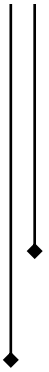

القصص متنوعة .. والأبحاث نظرت إليها من جذورها ويعود بنا الدكتور محمد وهدان إلى معنى كلمة قصة ويقول :

قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص:11] ، أي اتبعي أثره والقصة : الخبر بمعنى الحدث ، وقصصت الحديث رويته على وجهه .

قال الأزهري : القص : إتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصا في أثر فلان وقصصا وذلك إذا اقتفى أثره وقيل : القاص : يقص القصص لأتباعه خبرًا بعد خبر ، وسوقه الكلام سوقًا .

وعلى هذا فابن منظور يشير إلى أن القصة تعني لغة البيان ، وتتبع الأثر والخبر والحديث والراوية وكلها معان متقاربة كما هو واضح .

أما الراغب الأصفهاني فقد ذكر في مفرداته أن القص : تتبع الأثر ، والقص الأثر، قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف :64] ، والقصص الأخبار المتتابعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران:62] ، قال تعالى : ﴿ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف:111] ، قال تعالى : ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص:25] . ولا يختلف الأمر كثيرًا عند الفخر الرازي ، والفيروزابادي فقد ذهب كل منهما إلى أن القصة مشتقة من القصص وهو تتبع الأثر ، ويقال : خرج فلان قصصًا في اثر فلان : وقصًا ذلك إذا اقتفى أثره .

وعندما نبحث عن كل كلمة قصة في القرآن الكريم نجد أنها ومشتقاتها ذكرت في القرآن الكريم أربعًا وعشرين مرة ، وهي في مجملها تفيد رواية ما حدث للأقوام السابقين مع رسلهم وما جرى بينهم يقول القرطبي ، سميت قصصًا لأن المعاني تتابع فيها من قولهم فلان يقص أثر فلان أي يتبعه .

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص:11] معناه قص أثر موسى وأتبعه تقول قصصت آثار لقوم إذا تتبعت آثارهم .

بينما عرفها صاحب موسوعة القصص القرآني بأنها وسيلة للتلقين والتوضيح والتوجيه والإرشاد وقرع الأسماع وإخراج العقول من البلادة وصرفها إلى التفكير والتأمل والإقبال والإدبار .

ويذهب بعض الباحثين إلى تعريف القصة الخبرية القرآنية بأنها : هي التي تتبع أحداثًا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى عرضه ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن الكريم قصصًا مما يدخل في المعنى العام لكلمة نبأ أو خبر .

والحقيقة أن القصة الخبرية القرآنية ليست عملاً فنيًا مقصودًا لذاته ، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة وشرح الأوامر والنواهي الشرعية ونشر فكر الحق والخير والتعاون بين الناس ، وكانت القصة إحدى وسائل القرآن إلى غايته .

ولو استعرضنا موضوعات القصة الخبرية القرآنية لوجدناها تتحدث عن الكفار وأحوالهم ، والفجار ، والفراعنة ، والظالمين ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ، ونقض العهود ، وخلف الوعود ، إلى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله ، والصد عن سبيله ، والشبهات ، والشهوات ، والترغيب والترهيب وبيان سوء العاقبة .

ومن كل سبق يتضح أن مدلول القصة في اللغة هو :

الحكاية عن خبر في زمن مضى لا يخلو من بعض عبرة مع شيء من التطويل في الأداء . وهناك فرق بين الخبر والنبأ والقصة وقال بعض العلماء : الخبر والنبأ يرادفان القصة فهي ألفاظ متقاربة ومتشابهة في المعنى ، وإن كان كل منهما يفارق الآخر ببعض الخواص ، حيث إن القصة تطلق على الأحداث الكثيرة المتتابعة المتصل بعضها ببعض .

ولا يهمنا بعد ذلك الاستطراد في شرح الفارق بين الخبر والنبأ ونصل مع دكتور وهدان إلى تعريف القصة الخبرية الإعلامية غير القرآنية فهي في المفهوم الإعلامي التفاصيل الكاملة لخبر من الأخبار من جميع جوانبه وأحداثه وشخصياته وزمانه ومكانه .. والفن القصصي عمومًا فيه الأقصوصة والقصة والراوية والحكاية .

الأقصوصة فكرة أو لمحة أقرب إلى النكتة أوالمثل الشعبي . والقصة هي أقل من أن تكون رواية وهي غالبًا ما تسمى بالقصة القصيرة .. والراوية عن قصة طويلة تزيد غالبًا على 45 صفحة .. والحكاية قد تكون شفوية .. وقد تكون مجموعة روايات .. ولو أن هناك من يخلط بين الرواية والحكاية والقصة القرآنية تعتمد على أحداث ثانوية أو جانبية لكن آيات الله سبحانه وتعالى كلها أساسية لأن القرآن كتاب تشريع وعقيدة ودستور للحياة الإنسانية في مختلف علاقتها الروحية والجسدية والفردية والجماعية .. والقصة في القرآن لها غاية سامية هدفه منهج الله وبيان مراد الحق عز وجل من الخلق .. بعكس القصة العادية التي تتعدد أهدافها.

ونتفق مع الدكتور وهدان بأن القرآن الكريم ليس كتابًا متخصصا في التحرير أو تعليم قواعد الكتاب الدرامية ولكنه للهداية والإرشاد لأغراض دينية بحته وليس غرضه – بكل تأكيد – عرض قصص يراد به التسلية والتلهي .

ونحن أيضًا نؤمن أيمانًا جازمًا بأن القصص القرآني لم ولن يعارضه أحد لأن القرآن معجز... ويروي لنا التاريخ أن ابن المقفع وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعري حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن الكريم فما كادوا يبدأون هذه المحاولة حتى انتهوا منها إلى تكسير أقلامهم ، وتمزيق صحفهم لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالته .

وأغلب الظن أنهم كانوا يعتقدون من أعماق قلوبهم بلاغة القرآن الكريم

وإعجازه من أول الأمر ، وإنما أرادوا أن يضموا دليلاً جديدًا إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البلاغية من باب (ولكن ليطمئن قلبي) .

ويفرق دكتور وهدان بين القصة الخبرية التامة والمجزأة ومثال للقصة التامة : يوسف ، العبد الصالح مع موسى عليه السلام ، ذي القرنين ، أصحاب الكهف .

أما عن المجزأة فأبرز مثال لها قصة موسى عليه السلام وقد وردت في ثلاثين موضعًا وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام وقد ذكرت في عشرين موضعًا والمسيح عليه السلام في عشرة مواضع وقبلها قصة لوط عليه السلام ثم يوضح وهدان الفارق بين القصة المكية والمدنية .

(أ) القصة الخبرية المكية :

وهي القصة الخبرية التي نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ، وتتميز بأنها تعالج – في الأعم الأغلب – أمور العقيدة ، ولذلك نجد أن كل هذا النوع من القصة كان منصبًا على الأمم التي كذبت أنبيائها ورسلها في شأن التوحيد وعبادة الله وحده وترك عبادة الشركاء أو الأولياء من دونه .

ويتجلى لنا هذا النوع من القصص المكي في سورة مثل الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والكهف ومريم وطه والأنبياء والمؤمنون والشعراء وغيرها .

ومن خلال التأمل في القصة الخبرية المكية في القرآن الكريم تتضح أنها :

1 – أطول من القصة المدنية – التي سنتحدث عنها فيما بعد .

2 – أكثر احتفاء بالحوادث واهتمامًا بها وتقديمها حية .

3 – أقرب إلى الشكل الفني للقصة التي تبدأ بمقدمة وعقدة وحل يؤدي في النهاية إلى نجاة عنصر الخير ، وهلاك عناصر الشر أو اندثارها وسقوطها الذريع .

على سبيل المثال قصة أصحاب الجنة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم :17 ، 18] التي ذكرت في سورة الفلم بدأت بمقدمة وموقف من أصحاب الجنة .. وحينما قرروا حرمان الفقراء والمساكين وأقسموا ليحصدون جنتهم باكرين في الصبح قبل انتشار الفقراء فانتقم الله منهم وأهلك جنتهم ، لكنهم تابوا إلى الله واستغفروه فأبدلهم الله خيرًا منها أي أن القصة تؤكد في النهاية انتصار الخير وهلاك الشر ، وهذا ما تهدف إليه القصة الخيرية المكية .

وفي قصة أصحاب الأخدود يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ [البروج :4، 5] « فنحن نرى الإخبار بمصير المؤمنين الصالحين على أيدي عتاة مجرمين الذين أضرموا النار في الأخدود ، وألقوا فيه الموحدين ، فاستقبلوا الموت بصبر وثبات راغبين في منازل الشهداء والأبرار الأطهار » .

(ب) القصة الخبرية المدنية :

وهي التي نزلت على النبي ﷺ في المدينة المنورة طوال عشر سنوات عاشها النبي ﷺ في والمدينة المنورة .

ومن خلال التأمل في القصة الخبرية المدنية في القرآن يتبين أنها تتميز بما يلي :

1-القصر حيث إنها أقصر من القصة القرآنية المكية .

2-التناسب الموضوعي مع أهداف التشريع مع استمرار الدعوة إلى التوحيد وسائر أمور العقيدة .

3-أقرب إلى الخبر منه إلى القصة إلا قليلاً ومثال ذلك قصة ولدى آدم والغراب وهي على تمامها ليست قصة خبرية تامة الحوادث ولكنها مجرد خبر يحمل روح القصة .

ويشرح وهدان بعد ذلك كيف أن القصة الخبرية ممكن أن تبدأ من ميلاد النبي الكريم (آدم/ موسى/ عيسى) وقد تبدأ متأخرة (إبراهيم عليه السلام) وقد تبدأ القصة من نهايتها (نوح/ هود/ لوط/ شعيب) .. وفي كل الأحوال قد نجدها مفصلة أو متوسطة التفصيل أو قصيرة أو متناهية القصر ثم يستشهد برأي الدكتور محمد أحمد خلف الله في تصنيف القصة القرآنية إلى أربعة أنواع : القصة التاريخية / التمثيلية / الأسطورية / الرمزية أو الخطية وهو تقسيم اختلف معه وهدان ونحن أيضًا نرفضه وحاشا لله أن يكون القرآن الكريم كتابا للأساطير وها هي سورة الفرقان (5-6) تؤكد :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ .

والقصة في القرآن الكريم قد تكون تاريخية تحكى ما مضى أو واقعية لأحداث مواكبة للسيرة مثل موقعة بدر والخندق وقصة تناولت الغيب مثل خلق آدم .

الحقائق الواقعية في القصة

يقول الدكتور محمد حسن الدالي في كتاب «القصص في القرآن الكريم» كل ما ورد في القصص القرآني من أشخاص وأحداث ومجتمعات وأقوام وأمصار وقرى حقائق قد وقعت فعلا – ما في ذلك شك .. لكن الأديب يستخدم خياله فيما يكتبه من قصص﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:105] ويسأل ونحن معه :

هل كان الذي حدث لأصحاب الكهف موتا حقيقًا أم كان سباتًا ونومًا طويلا ؟ كلا الأمرين يمكن أن يكون مادام ذلك متعلقًا بقدرة الله ، وكذلك الشأن في ذلك الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، فهو رجل يؤمن بالله ، وكان يريد أن يستوثق لإيمانه ، ويطلب له المزيد من الأدلة والشواهد ، فالرجل حينما مر على هذه القرية التي اندثرت معالمها ، وخمدت حياتها ، وصار كل شيء فيها إلى

تباب ويباب ، فتساءل : هل تعود هذه المعالم التي بلاها البلى ، وأكلها التراب مرة أخرى إلى الحياة ؟؟ أذلك ممكن ؟؟ فعلم – تعالى – ما يدور بخلده ، وما يتجمجم في صدره ، فأعاشه التجربة الحية ، وأماته مائة عام ، ثم أحياه ، ووجد الرجل هاتفًا من قبل الله يسأله عن الزمن الذي لبثه ، فوضع في تقديره أن ما لبثه يومًا أو بعض يوم ، ولم يدر بخاطره انه لبث مائة عام ، واخبره الهاتف بالحقيقة وطلب منه أن ينظر إلى طعامه وشرابه اللذين لم يدخلهما فساد ، وإلى حماره ومازال قائما إلى جواره كما تركه : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:259] .

وقفه مع موسى

ويتعمق الدكتور محمد على رزق خفاجي في كتابه (رؤية فنية لنص قرآني) .. يتعمق في قصة موسى عليه السلام ويتناولها من زوايا فنية عديدة تمس الجانب الدرامي وهناك من يتخوف من النظرة العصرية إلى قصص القرآن الكريم .. لكن الدكتور خفاجي لا يجد حرجًا في استخدام أدوات العصر .. انطلاقًا من الإيمان بأن كتاب ربنا سبحانه وتعالى يخاطب كل عصر بلغته وهذا هو بعض أعجازه فلا يمكن بحال أن ننظر إليه مثل بعض المستشرقين على أنه من كتب التاريخ أو الحكايات ثم يتوقف خفاجي مع أبرز الملامح الفنية التي لمسها في قصة موسى عليه السلام حيث طريقة العرض والمونتاج وبناء الشخصيات .. وتقديرًا لهذا الجهد المتميز رأيت أن استعرضه بشيء من التفصيل :

1 – طريقة العرض : لقد بدأت القصة من نصفها ثم استرجعت أحداث النصف

الأول مفرقة على التوالي بالسرد والتذكر .

وهذا ما تراه في الفن القصصي المعاصر الذي يلجأ أحيانًا إلى بدء القصة من نهايتها أو نصفها الأخير أو من جزء منها ، ثم يتم استكمال الأحداث بطريقة الاسترجاع أو الرؤية الخلفية Flash back، ويلجأ الروائيون على ذلك لغرض التشويق وجذب الانتباه إلى حادث معين أو شخصية معينة .

وقد بدأت القصة الموسوية في السورة من بداية رؤيته للنار : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ .

ورؤية النار في ذاتها حادثة هامة لمن يتأملها ، وذات دلالة عميقة لموسى نفسه وللمؤمنين . وذلك أن رؤيتها كانت خصوصية لموسى دون غيره ، فزوجته لم تر تلك النار التي رآها كما لم يرها أحد من الرعاة واللصوص والعباد وعابر السبيل ، وقد تأكد ذلك عندما ذهب موسى إلى مصدر النار ، فلم يجدها نارًا تأجج ، ولا لهيبًا تتطاير ألسنته ، كما لم يكن لها أوار يعلو ، ولا دفء ينتشر ، وإنما وجد شجرة مضيئة بضوء خلاب .

إن موسى لم ير النار ولم يستمع إلى وحي ربه إلا بعد أن قطع شوطًا غير قليل في رحلة عمره ، وقد سبق ذلك زمن طفولته وشبابه ، وهي مراحل لم تبدأ بها القصة ، ونراها ملقى بها في ثنايا الأحداث المسرودة ، فجاء ذكر طفولته بعد التكليف بالرسالة ، وطلب التوجه إلى فرعون الطاغي ، وتأييده بآيات كبرى ، واستجابة الله لدعائه المتضمن إطلاق لسانه وشرح صدره وتيسير أمره ، وجعل هارون مؤزرًا له، وهذه نعم عظيمة من الله بها على موسى ، وكان السياق مناسبًا لعرض جانب من الأحداث الأولى في حياته ، والمقام هو التذكير بنعم الله عليه ، ومن تلك النعم

العظيمة إنقاذه من قتل فرعون له وهو طفل ، حيث ألهم الله أمه أن تضعه في تابوت تقذفه في اليم ، وبأمر الله قد ألقاه اليم بساحل قصر فرعون الذي يلتقطه ويرعاه ، وقد تمثلت نعمة الله سبحانه عليه عندما جمعه بأمه ، وقد استكملت أجزاء أخرى من سيرته الأولى قبل التكليف في مقام التذكير أيضًا بالنعم التي أسبغها عليه ، وقد جاء قتله للمصري وفراره إلى أرض مدين ناجيًا في عرض سريع مؤدٍ لمعناه المقصود ، كما جاء قضاؤه للأجل وزواجه من ابنة الرجل الصالح في إشارة لامحة موحية .

ويفهم السياق عند رؤيته للنار أنه عائد من مدين مع أهله وماله وولده . وهكذا يستكمل الجزء المتروك من حياة موسى بهذا السرد السريع الذي جاء في صورة التذكير بالنعم .

2-القطع والوصل (المونتاج) : نلحظ أن قصة موسى في السورة قد ظهر فيها فن القطع والوصل (المونتاج) الذي يزيد العمل القصصي قيمة فنية ، فالسرد المتتابع تاريخيًا أو منطقيًا مثلا – يؤدي إلى التوقع والتعرف على نهاية الأحداث ، كما يورث الرتابة التي يسعى الروائيون إلى التخلص منها بطرق فنية مختلفة ، ومن تلك الطرق القطع والوصل ، فنجد السرد القصصي لحدث معين يتوقف ويدخل في حدث آخر ، أو في تحليل لسلوك شخصي ، أو وصف لمكان أو ملبس أو غير ذلك ، ثم يخلق الروائي سياقًا مناسبًا للعودة إلى مواصلة بناء الحدث الأول الذي قطعه .

والروائي يصرف انتباه القارئ من حال إلى حال ، وهو يصنع ذلك لأغراض كثيرة أهمها جذب القارئ إلى مواصلة القراءة .

ونحن نلحظ هذا الفن بوضوح في قصة موسى في مواضع كثيرة منها :

(أ)بدأت القصة بسؤال رسول الله ﷺ عن معرفته بقصة موسى قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ . والله جل ثناؤه لا يسأل هنا لأنه لا يعلم ، فهو سبحانه منزه عن عدم المعرفة ، وهو يعلم أن رسول الله ﷺ قد عرف شيئًا أو طرفًا من ذلك الحديث في سورة الأعراف التي سبق نزولها هذا السؤال .

ويستطرد الدكتور خفاجي في شرحه لعلمية المونتاج أو القطع أو الانتقال من مشهد إلى آخر فيقول :

(كان من المتوقع بعد الاستفهام أن يتناول الحديث المراحل السابقة من حياة موسى عليه السلام قبل الاصطفاء والتكليف لكن القطع يطلب تجاوز هذه المراحل ليرجع إليه في سياق آخر بعد ذلك... فقد ترك ذكر ولادته في أيام بطش فرعون ببني إسرائيل وقتله لمن يولد منهم في تلك السنة ، كما ترك إلهام الله لأمه عند ولادته بأن تضعه في التابوت وتلقيه في اليم ثم التقاط آل فرعون له ، وإرجاعه إلى أمه التي صارت مرضعة له ، وتربيته في قصر فرعون ، وفترة شبابه ، وحادثة قتله للمصري ، وهربه إلى أرض مدين وزواجه من ابنة الرجال الصالح الصغرى ، ثم عودته بعد قضاء الأجل المتفق عليه .

وهذه المراحل وردت بإيجاز في مقام التذكير بنعم الله عليه بعد الاستجابة لكل ما سأل ، قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ .

(ب)وتأتي الآيات التالية لتصل ما قطع : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .

فلقد طلب الله من موسى في الآية رقم 24 أن يذهب إلى فرعون بعد أن سلحه

بالآيات المعجزات :﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ .

وهما آيتا العصا واليد ، وقد حدث قطع بعد هذه الآية بدعاء موسى لربه ، فأنعم الله عليه بالاستجابة ، فشرح صدره ويسر أمره وأطلق لسانه وجعل له أخاه هارون مساعدًا ثم ذكره بالنعم الأخرى التي أسبغها عليه .. ثم تجيء الآيات التالية كما أشرنا لتصل ما قطع وهي الآيات التي تكلفه بالذهاب إلى فرعون .

وهذا موضع آخر يبدو فيه هذا الفن واضحًا جليًّا مؤديًا لغرضه .

(ج) من المواضع التي ظهر فيها هذا الملمح الفني علاقة الآية 49 بما قبلها ، فقد أمر الله رسوليه موسى وهارون أن يذهبا فرعون لدعوته إلى الإيمان بالله ، وأمرهما أن يقولا له قولا لينا ، ويخبرانه أنهما رسولا الله ، ثم نجد بعد أمر الله لهما بالذهاب والقول أن فرعون يسألهما عن ربهما ، وبين طلب الذهاب وسؤال فرعون أحداث كثيرة حذفت للعلم بها أو لأنها متصورة مفهومة ، والأحداث والأقوال المقدرة هي : أنهما أطاعا الله فيما أمرا ، وقالا لفرعون قولا لينا لهدايته ، وأظهرا له معجزتي العصا واليد ، سألهما بعد ذلك عن ربهما الذي يدعوان إلى الإيمان به كما يمكن تقدير الحوار الذي دار بين موسى وفرعون في مساحات واسعة .

ومعنى هذا أنه حدث قطع بين الآية 49 وما قبلها ، فقد حذفت أحداث وأقوال كثيرة لأنها متصورة مفهومة ، وفي عدم ذكرها بلاغة رفيعة ، ودلالة على أن المخاطبين أصحاب قدرة على التصور ، ولذلك ترك ذكرها لإعمال الفكر وتنشيط الخيال .

(د)ونجد في علاقة الآية 70 بما قبلها مظهرًا من هذا الملمح الفني ، فنجد في – تلك الآية سجود السحرة لرب موسى وإيمانهم ، ونجد في الآيات التي سبقتها تجسيدا للمباراة التي دارت بين السحرة وموسى ، وبين الآية 70 والآيات التي

قبلها كلام كثير يمكن أن نقدره ، وهو ما يمكن أن يعبر عن تحول السحرة من التحدي الظاهر لموسى إلى التصديق به والإذعان لدعوته ، وهي أمور تستغرق زمنا غير قصير ، وتستوجب أقوالا وأفعالا كثيرة ، كالتفكير في معجزة موسى ، ومراجعة موقفهم مع فرعون وجنوده ، وتقدير ما يمكن أن يسفر عنه أي تصرف منهم ، وإيمان السحرة لا يخص فردًا واحدًا ، بل هو متعلق بجماعة كبيرة ، ومن المتوقع أن يدور بين أفرادها حوار وجدل ومنازعات تسفر عن مواقف تمثلهم وتختص بهم ، فقوله تعالى على لسان السحرة :﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

لم يكن قرار عفويًا منهم ، بل هناك من الأحداث والأقوال التي هيأت له ، وهذا يعني أن قطعًا أو حذفًا قد وقع .

(هـ)ومن ذلك أيضًا ما بين الآية 77 وما قبلها ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ . والآيات التي قبلها توضح إيمان السحرة ، وموقف التحدي من فرعون وعدم مبالاتهم لوعيده ، والتحدث عما ينتظرهم من النعيم يوم القيامة .

ونجد بين الآية والآيات التي قبلها قطعًا ، وإنما نستطيع أن نقدر ما ورد في سورة الأعراف عن موقف فرعون من بني إسرائيل بعد هزيمة السحرة الذين اعتمد عليهم ، وقد اشتد غضب فرعون مما دعاه على تهديد بني إسرائيل بالقتل والتسخير واستباحة النساء ، كما أن بني إسرائيل أنفسهم قد يئسوا ، وضعف إيمانهم وتطيروا بموسى ، فأمره الله أن يخرج بقومه ليلا من مصر ، وتبعهم فرعون وجنوده ، وكان جزاؤه ما كان . ونجد في الآية 77 وصلا لما سبق من أحداث متعلقة بموسى وقومه .

(و)ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في الآية 83 : ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

والآيات التي قبلها ، وهي تتحدث عن نعم الله سبحانه على بني إسرائيل ، فهو سبحانه ، قد نجاهم من عدوهم ووعدهم بالتوراة التي سيظفرون بالعمل بها ، وأنزل عليهم المن والسلوى . قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ .

ملامح الشخصيات

تحدثت سابقا عن بناء الشخصية أو رسمها أو (C.V) أو السيرة الخاصة بها .. من حيث الشكل والسن والملامح والصفات الإنسانية والنفسية والاجتماعية وبما أننا في بقية قصة موسى في سورة (طه) يتوقف د. خفاجي أمام هذه الملامح وأهم الشخصيات التي وردت في القصة وبطلها بالقطع سيدنا موسى عليه السلام بين قوته وضعفه وكيف تربى في بيت عدوه (فرعون) الذي يتسم بالجبروت والطغيان والدموية ثم شخصية السامري صانع التماثيل وتشكيل المعادن ولا نعرف عن حياته السابقة سوى أنه من جيران موسى في مصر .. ونصل إلى هارون عليه السلام شقيق موسى الفصيح صاحب العقل الراجح والذراع الأيمن الذي يستند إليه موسى وهو يكبره بعامين .. وفي القصة أيضًا المجاميع من بني إسرائيل وكلها تحمل سمات واحدة من حيث الاستسلام والخضوع لفرعون .

ويشير خفاجي إلى تفاصيل شخصية موسى عليه السلام منذ ولادته ثم شبابه عندما تورط في قتل المصري ثم هروبه إلى مدين ثم زواجه من إحدى ابنتي الرجل الصالح .. وهو سريع الغضب حتى مع أخيه .. والقوة ليست في إيمانه فقط لكن أيضًا في مواجهة سحرة فرعون ثم السامري وهو يتحمس لأهله مثلما فعل مع المصري ومع ذلك هو يخاف من الحيات شأن غيره من البشر حتى جاء نداء

السماء ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ وانفعال موسى هذا حمله أن يطلب من ربه أن يراه ثم خر صعقا بعد ذلك .

وهو إلى جانب ذلك الرجل الغيور على الحق .. وعلى امرأته التي خرج بها ليلا إلى مصر .. وقبلها كان غيورًا على بني وطنه لكن غيرته الأكبر على دينه ومع ذلك يندم على القتل ثم إذا تكرر الموقف رفض الانسياق مع الرجل الذي من شيعته على الذي من عدوه ثم هو أيضًا من أصحاب المروءة والعفة .. عندما وجد الفتاتين عند الماء .. ثم إذا سقى لهما توارى بعيدًا لا ينتظر أجرًا ولا شكورا حتى جاءت إحداهما تمشي على استحياء وتدعوه إلى أبيها الذي استمع إلى قصته ثم عرض عليه العمل معه وأن يطمئن قلبه بالنجاة من القوم الظالمين .

عناصر الصراع

توفرت في قصة موسى عليه السلام الأعمدة الدرامية المتعارف عليها من صراع بين قوتين .. والصراع فيه ما هو رئيسي وآخر فرعي .

ولأن القصة في القرآن الكريم لها مواصفاتها الخاصة .. يكون حل العقدة .. أو الصراع بمعجزة ربانية فقد جاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر .. فإذا به ينشق إلى طريق يمضي فيه مع مريديه ..

والمفاجآت أيضًا واردة وأهمها عندما رأى موسى عليه السلام النار صاعدة من شجرة عناب كانت المفاجأة بالنداء على اسمه ((يا موسى إني أنا ربك) وصولا إلى مفاجأة فتنة السامري عندها شق قميصه وكذلك رؤيته للجبل المدكوك المنهار .. ولا ننسى مفاجأته مع العبد الصالح عندما خرق السفينة وقتل الغلام وهدم الجدار . ونلاحظ أن العبد يعرف ما يفعله وهو ما يجهله موسى ..

وهي واحدة من أساليبه التشويق والسرد الدرامي فقد يعرف المتفرج ولا يعرف بطل القصة أو العكس .. وقد يغيب السر عن الجميع حتى يتم كشفه في

نهاية العمل . وقد يلعب المؤلف مع الجميع مستخدمًا مهاراته في السرد . والسرد لا يكتمل بدون الحوار وبه يتم تطوير الحدث وزيادة إيقاع الصراع ورسم الجوانب المختلفة للشخصيات مع اختلاف المواقف وطبيعة كل شخصية وكل طرف .. والحوار في القرآن الكريم يتناسب مع جلال وقدسية المتكلم إذا جاء الكلام من جانب ربنا سبحانه وتعالى إلى النبي أو الناس .

لكن إذا جاء الحوار على لسان فرعون : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ ويصمت موسى لأن الإجابة معروفة والسؤال لا يستحق والصمت هو لون من ألوان الحوار الاستنكاري أو الرافض أو المرفوض ؟

ونتوقف مع الدكتور محمد على رزق خفاجي عند الحوار فيما جاء بالآية رقم [69 –70]في سورة طه : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

وكان من الممكن أن يسدل الستار على هذا الموقف لولا غضب فرعون وتهديده للسحرة وقد توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل لكنهم لم يعبأوا بذلك الوعيد بل أعلنوا عصيانهم وطاعتهم لله .

ويقول د. خفاجي :

ونلحظ في حوار هذا المشهد كثرة الأطراف التي تصاعدت بالأحداث ودفعت بها إلى قمة من قمم الصراع ، فالجمل الحوارية مع قلتها نجدها بناءة إلى حد كبير . وهي جُمل متنوعة في دلالاتها وأبنيتها ، فهي بين أمر من فرعون يتمثل له السحرة ، وأمر من الله يطيعه موسى وهارون ، وهي تحذير من موسى للسحرة ذوي العدد الكثير ، وتحذير لهم أيضًا من آل فرعون وجنوده .

ثم يأتي بعد ذلك مستوى آخر للتعبير بالجُمل الحوارية وهو المسلك

الحضاري الذي اتخذه السحرة عندما تركوا حرية الاختيار في البدء ، فهو لم يستخفوا بموسى ، ولم يقللوا من شانه كما فعل فرعون ، فمخاطبتهم له قائمة على التأديب . وقد قابل موسى هذا التقدير بأفضل منه عندما ترك لهم أسبقية البدء .

وفي السورة الكريمة مواقف حوارية أخرى مثل حوار موسى مع السامري ، وأخيه هارون ، وبني إسرائيل لا، لكننا نكتفي بما أوردناه في المشاهد الثلاث التي أوردناها ، وهي تؤكد أن الحوار فن تعبيري رفيع ، تقوم عليه الأشكال الأدبية كالقصة والمسرحية . وهو يؤدي دورًا وظيفيًا مستقلا في كثير من الأحوال ، وقد لاحظن كثافته في سورة طه ، وقد أدى غرضه في بناء الشخصيات ، ونمو الأحداث والوصول بها إلى قمم الصراع .

والجمل الحوارية متنوعة ، وهي تختلف بحسب المقامات والأحوال التي قيلت فيها ، والشخوص الصادرة منها .